حكمة الموت

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

مضى شهر تقريباً وحضرة محمد أفندي عبد القوى يشعر بتوعك المزاج . آيته همود فى الجسم وثقل فى الدماغ ووهن — يشتد حيناً ويخف أحياناً — فى الساقين ، وقد سكت عن حالته الطارئة طوال الشهر وهو يعللها بكثرة العمل تارة وبإدمان السهر تارة أخرى؛ وفعلا طلب إجازة قصيرة وكف عن السهر راجياً أن تعود صحته إلى حالتها الطبيعية ... وانتظر على هذا الرجاء أياماً وما تزداد حالته إلا سوءاً حتى لم ير بداً من استشارة طبيب. وقال له الطبيب — بعد أن فحصه بدقة وعناية — إنه مصاب بضغط الدم وأشار عليه بالتزام الراحة أياماً وبالاقتصار على الطعام المسلوق والفواكه ، والامتناع عن تناول اللحوم الحمراء وتعاطى الخمور ثم وصف له الدواء اللازم ...

ورجع محمد أفندي من عيادة الطبيب خائفاً مذعوراً كثير الهم والفكر ... وقد يكون هذا — فى ظاهره على الأقل — غريباً لأن الضغط لم يكن شديداً، ولأنه من الأمراض التى يمكن تلافى خطرها بالعناية والحرص فى اختيار الطعام والشراب، ولأن محمد أفندى شاب فى الخامسة والثلاثين فلا ينذره الضغط بما ينذر به ذوى الستين أو السبعين. والأعجب من هذا كله أنه لم يكن غافلا عن هذه الحقائق ولكنه فى الواقع لم يخش المرض فى ذاته قدر ما خشى التاريخ أعنى تاريخ أسرته . فهو يذكر أن أباه أصيب بالضغط وهو فى مثل عمره تقريباً ويذكر أنه لم يقاومه طويلا فساءت حالته وأصابه الشلل فقضى فى عنفوان شبابه وقوته . ولم يكن موت أبيه فى عنفوان شبابه حادثاً غريباً فى أسرته، فهكذا قضى جده من قبل ولم يجاوز الأربعين ... إن ذاكرته لا تحفظ له من حياة والده إلا آثاراً خفيفة لأنه توفى وهو — أى محمد — غلام صغير ، ولكن صورة المرحوم المعلقة بحجرة الاستقبال أثر باق يشهد بالشبه العظيم بين الابن وأبيه ، وإن الناظر إلى الصورة ليقتنع بهذه الحقيقة التى تدل على أثر الوراثة . فالجبهة المربعة والعينان المسلتان المستديرتان ، والأنف الكبير المائل إلى الفطس ، والفم العريض المغطى بالشارب الغليظ، والوجه الممتلئ والجسم البدين... جميع هذه معالم مكررة بين صورة الراحل والشخص الحى كالأصل وصورته، وكأن صاحب الصورة هو محمد نفسه فى ثياب بلدية .. الجبة والقفطان والعمامة ..

ياله من شبه عجيب ! ولم يكن غافلا عنه ولكن خيل إليه عندئذ أنه يفطن إليه لأول مرة فى حياته أو أنه اكتشف فيه مغزى كان عنه خافياً ...

ولا مراء فى أن الشبه بينهما لم يقف عند حد الشكل فطالما سمع والدته تنوه بأوجه الاتفاق بينه وبين أبيه فى الخلق والطبع فى المناسبات المختلفة ... فكان إذا احتد وغضب لأتفه الأسباب تنهدت وقالت : « رحم الله أباك ... ليته أورثك غير هذا الطبع طبعاً هادئاً » ... أو إذا جلس إلى الحاكى ينصت فى انتباه ويهز رأسه فى طرب قالت وهى تبتسم له : « ابن حلال يا بنى . . » أو إذا رجع

إلى البيت بعد منتصف الليل ثملا مترنحاً استقبلته قلقة حزينة وتصيح به وهى تغالب دموعها « إن جرح قلبى لم يندمل بعد ... فلا تفجعنى فيك كما فجعت فى والدك من قبل ... »

فهو صورة صادقة لوالده فى شكله وخلقه وطبعه وها هو ذا يرث عنه مرضه ... فلم لا تكون نهايته كنهايته . ؟ ..

وا أسفاه ! إن هذه الأسرة مقضى عليها بالدمار فقد قضى جده شاباً ، وقضى مثله والده ، فليس إذاً هذا المرض من المصادفات المحزنة ... ولكنه بداية النهاية ، وما هو إلا معيد تمثيل الدور القصير الذى قام به من قبل المرحوم والده ، وقام به قبله جده ، وما مرضه هذا إلا سبب تعتل به الطبيعة عليه لتنفذ قضاءها المحتوم فى شجرة أسرته البائسة المقضى عليها بالذبول والجفاف فى إبان ربيعها ...

وجعل يردد فيما بينه وبين نفسه : « الشكل واحد والخلق واحد والسيرة واحدة والمرض واحد فالنهاية واحدة دون ريب » وتشبث وجدانه بهذه الأفكار فقويت عقيدة الموت فى نفسه وملأت شعوره فتمثلت له حقيقة لا تتزحزح ، واستسلم لها استسلاماً تاماً حتى أشفى على القنوط ، وبات ينتظر القضاء المحتوم الذي يراه قريباً ... بل أدنى إليه من مخاوفه ...

إننا جميعاً نعلم أننا سائرون إلى الموت ولكننا لا نذكر هذه الحقيقة إلا حين حوادث الوفاة أو لدى زيارة المقابر وفى الساعات النادرة التى نستسلم فيها للتأمل . وفيما عدا ذلك فجبلة الحياة تغمر عادة سكون الموت ، وحرارة الأمل تقصى عن أفكارنا برودة الفناء . أما الآن وقد ضرب له شعوره ومنطقه موعداً قريباً للموت فقد ولى وجهه هذا الأفق القريب لا يحول عنه ، وجعل يديم إليه النظر فى استسلام وحزن ويأس ...

وعجب فى أحزانه لمن يقول إن الموت راحة ، ولم يفقه لها من معنى إلا أن تكون تململا وضيقاً بمتاعب الحياة ، ولكن ما هذه المتاعب بجانب ظلمة الموت ووحشة القبر ؟

الموت ! ياله من حقيقة مخيفة ... لم يشعر بهولها من قبل ... ترى ما هو هذا اللغز الغامض ؟ وما كنهه ؟ وما حقيقة الروح التى ستفارقه بعد زمن يسير وتصعد إلى بارئها ؟ وذكر عند ذاك الآية الكريمة « يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أما هو فلم يأت من العلم كثيرا ولا قليلا ، وحسبه أن يعلم أن الروح — وهى منبع حياته ووجدانه وأفكاره — ستهجر جسده البائس آخذة معها كل جميل حى غير تاركة خلفها إلا أثراً جامداً ... أو جثة كما يقولون ... فوا أسفاه !

ودلف إلى المرآة وألقى على وجهه نظرة ملؤها الأسف والحزن . وتأمل صورته طويلا ، وجعل يقبض كفيه ويبسطهما ... كم هو ممتلئ صحة وعافية وشبابا ! سينضب معين هذا كله ... ويجف غصنه الرطيب ... وتغيض معانى اليقظة فى عينيه ... ويمسى جثة ... ممزقة ... نتنة ... قذرة ... ترعاها الديدان ... ما أفظع هذا !

والأدهى من ذلك أنه لم يشبع من الدنيا وأحس فى تلك اللحظة كأنه لم يبدأ رحلة حياته بعد ، وود من أعماقه لو تتاح له فرصة فيعيد الكرة ، ليعيش حياة الطفولة السعيدة مرة أخرى ويعيد عهد الصبا

وينقلب إلى الشباب عمراً مديدا ، ولا يترك الدنيا إلا وقد شبع من مسراتها وتزود من خيراتها ...

كلا إنه لم يشبع من الدنيا ولم يتمتع بحياته كما ينبغى له . وإنه ليسأل نفسه وسط حزنه وأسفه ويأسه: (ماذا صنعت بحياتى؟) فيعييه الجواب كأنه ولد بالأمس القريب ، ثم يزول عنه الإعياء والعجز فتأتيه الذكريات تباعاً ، خفافاً وثقالا ، فلا يكاد يظفر فيها بما يجوز أن يعده من السعادة الصافية التى تطيب بها الدنيا وترجى لها الآخرة . أما ماينغص الطمأنينة وينتزع آهات الحسرة والأسف فكثير لا يحصى ، وما يتبقى من الوقت ما يتيح الفرصة لإصلاح فاسده والتكفير عن سيئه ...

ماذا صنعت بحياتى ؟ قد يطرح هذا السؤال قوم فيأتيهم الجواب السعيد فى آيات الفكر التي أورثوها الانسانية كافة أو الأعمال الجيدة التى بذلوها لأوطانهم أو الكفاح النبيل الذى أدوه للأسرة والأبناء ، أما هو فلم يك واحداً من هؤلاء ... لم يضطلع بتبعة من تبعاتهم ولم يبذل تضحية من تضحياتهم ولم تكلل هامته بوسام من أوسمة مجدهم وجهادهم ... فلم يختلج فى صدره قط معنى من معانى الانسانية ولم يعرف الوطنية إلا شقشقة لسان وجدل فراغ، ولم يقدم على الزواج ولا قدر مافيه من معزى طبيعي خالد أو واجب اجتماعى نبيل . وبالجملة عاش لنفسه يرسف فى أصفاد الأنانية وينزلق يوماً بعد يوم فى مهاوى الحيوانية والجمود ...

وقد يكون من المغالاة أن يقال إنه لم ينتبه من قبل إلى تفاهة حياته ولكنه لم ينتبه إليها الانتباه الحرى بأن يبعث فيه روح الندم الصادق وأن يحثه على التفكير والتجديد، فكان إذا ضايقه التفكير فى تفاهته أغمض العين على القذى وقال لنفسه معزياً «إن في العمر متسعاً للتغيير ...» ولكنه لا يستطيع أن يقول ذلك الآن والموت لا يمهله إلا شهوراً معدودة ... ولو أن حياته اقتصرت على التفاهة لربما هان الأمر ... ولكنها تتلوث فى صميمها بالاثم والشر والخنوع مما يندى له الجبين خجلا ويتنزى له القلب ألماً وحزنا ...

ذكر حياته الحكومية فذكر بها الذل والهوان والضعة والجبن ... هو ولا شك موظف مجتهد ودقيق فى عمله ولكنه كان دائماً أضعف من أن يقاوم الوسط الذى وجد فيه ، فكان يجارى التيار ويتفادى التصادم ويمنع إشفاقاً من النقل والاضطهاد فأدى به خوفه من الاضطهاد إلى أحط أنواع الاضطهاد والذل ، ووجد نفسه يخوض فى الأعراض ويجامل فى الحق ويتغاضى عن الذل ويسكت على الاهانة ... فيالله الضعة !

وذكر حادثة أهوت به إلى الحضيض وتقبلها فى وقتها قبول الفاجرين ، إذ كانت تختلف إلى بيته امرأة عجوز تحتال على العيش ببيع البيض والفاكهة، وكانت أمه تشملها بالعطف فتطعمها وتكسوها مما جعل المرأة تطمئن إليها وتعهد لها بحفظ أرباحها الضئيلة حتى تجمع لديها خمسة جنيهات أوصت — إذا أصابها قضاء الموت — أن ترد إلى ابنتها البائسة وأبنائها اليتامى ... ومات العجوز فعهدت أمه إليه برد المال إلى مستحقيه ... وآسفاه ! ... لقد كان يعلم أن المتوفاة كانت تخفى أمر تركتها عن ابنتها ، فما كان منه إلا أن دس الجنيهات فى جيبه وبددها فى المقامرة والشراب ... وهضم ضميره البليد فعلته الشنعاء وارتضى السرقة وحرمان اليتامى

حقهم دون وخز أو ألم ... فأى دناءة وحقارة !

وذكر ليالى العربدة والفجور التى عرفته فيها الحانات مدمناً لا يريم ، وموائد القمار لاعباً مدلساً لا يشق له غبار ، والمستهترات رفيقاً لا يشبع ولا يرعوى ... أواه ... إنه ينبغى له أولا أن يستل الدين والايمان من صدره قبل أن يعد تلك الليالى الحمراء من الحياة السعيدة التى لا يجوز أن يندم على ما فعل فيها ...

وذكر أيضاً غرامه ... فقد استطاع قلبه على تفاهته وتلوثه ـ أن يحس ويخفق ، ولكنه كان غراماً عجيباً ، بل لو أن إنساناً سماه كراهية ما جاوز الحقيقة ... كانت فتاته أخت طبيب كان فى صباه صديقه الحميم ، ثم أنأته عنه أسباب الدراسة والعمل فانتهى هو إلى وظيفته المجهولة وبدأ الشاب حياة الكفاح والنجاح ، ولم تكن طبيعة محمد بمستطيعة أن تهضم هذا الفارق بينه وبين صديق الصبا دون أن تفرز الحقد والحسد ، وزاد سخيمته إهمال صديقه القديم له وزهده فى معاشرته ، وأجج من نيران غضبه عليه ما ترامى إلى سمعه من زيغ صديقه وعدم اكتراثه للأديان وإيمانه بالعلم وحده دون غيره. ولكن ذلك كله لم يستطع أن يمحو من صدره ولعاً تربى فى قلبه منذ الصغر باحسان شقيقة الطبيب الناكث الناجح الكافر ... ما كنه هذا الولع ؟ كانت الفتاة ـ إذا حرسنا على المجاملة ـ متوسطة الجمال وربما دلت بعض قسماتها على دمامة ، ولكنها كانت ممتلئة الجسم بضته ، مفصلة الثنيات خفيفة الروح ، فكان يسرى من مشهدها إلى صدره ما يشبه مس الكهرباء ، وكان يبقى فى أعصابه من أثر رؤيتها قلق وألم فاقتنع فيما بينه وبين نفسه بأن صاحبة هذا الجسم البض حرية بأن تسكن قلبه وتطفئ نيرانه .

وكان المنتظر والحال هذه أن يتقدم إلى صديقه القديم طالباً يدها ، ولكنه توقع الرفض ورجحه نظراً للفارق بينهما وبين أسرتيهما ، وسلم بظنه تسليما دون مناقشة أو مراجعة أو اختبار ، فانقلب أشد حقداً على صاحبه وعلى الدنيا جميعاً ... وطارد الفتاة حتى أوقعها فى شباكه فكانا يختلسان اللقاء الحين بعد الحين ، وكانا يذهبان إلى الحدائق يطلبان غرة من الناس وهنالك يلف ذراعه بذراعها ويروى غلته بلمسها وتقبيلها ، ويعطيها فى مقابل ذلك وعوداً خلابة . ثم يعود ظافراً بإشباع عاطفته والانتقام من كبرياء صديقه القديم ...

يا لها من نذالة ! ... إنه يعبث بفتاة تصدقه الحب وتخلص له أيما إخلاص ... فلو أن نيته صدقت على الزواج منها لربما فاز ببغيته ، ولربما كان هذا الزواج خير علاج لحياته البائسة. ومن يعلم فلعله كان الآن أبا يتعزى بما يخلف فى الدنيا من أبناء يمدون خيط حياته القصير ويعيدون حياته الفانية

ومهما يكن من أمر فما عساه صانعاً ولم يبق له من العمر إلا أيام أو شهور ؟ ماذا هو فاعل بشهوره الباقية ؟ هل يركن إلى الراحة والدعة ؟ أم هل يطبع على عينيه فيستهتر ويتمادى فى غيه ؟ أم هل يستطيع أن يصلح فى شهور ما أفسده فى خمسة وثلاثين عاماً؟

ليس الانسان حراً فى الاختيار كما يتراءى له ، وقد كان محمد ـ على تفاهة حياته وقذارتها ـ يؤمن بالله وباليوم الآخر فبث إيمانه الخوف فى نفسه وجعله يشفق من عاقبة الموت فاختار سبيل الاصلاح . نعم قد لا يستطيع أن يصنع شيئاً ذا بال ، ولكنه على كل حال لن يعدم طعم الراحة التى يثيب عليها الاجتهاد ...

إن الموت قريب وهو يحس بدنوه منه ساعة بعد ساعة، ولكن رسوخ هذه الحقيقة فى نفسه جمع شتاتها وقوى جنانها وملأه شجاعة واستهتارا بالمخاوف، مخاوف الدنيا جميعا، وعم يخاف بعد اليوم؟ بل كيف يخاف شيئا؟ لقد كان حب الحياة مبعث مخاوفه جميعا، فلما صار حبا ضائعا لا فائدة فيه انحلت عقدة مخاوفه وانطلق من إساره حراً طليقا لا ينوء صدره بشيء من تكاليف الحياة ...

كم كان يخاف الرجال — أو بعض الرجال على الأصح — وكأنه يكتشف الآن فقط أنهم أناس مثله، وكم داس على الحق والكرامة فى سبيل مرضاتهم! وكم ضيع من فرص فى الحياة! . . . لاخوف بعد اليوم ... ولا مجاملة فى الحق ... ولا فر حيث يجب الكر. ولا إحجام حيث ينبغى الأقدام. كلا. كلا. لقد انقلبت المخاوف جميعها ألاعيب أطفال وسيشق طريقه فى الحياة غير هياب.

واستحال محمد افندى عبد القوى إنسانا غير الانسان الذى عرفه الناس ...

وكان أول ما صنع أن سحب من نقوده المودعة فى البريد خمسة جنيهات وذهب لتوه إلى المرأة ابنة العجوز المتوفاة وأعطاها إياها وهو يقول «هذه أمانة أمك ترد إليك» ووقف لحظة ذاهلا أمام الفرح الذى غمر قلب المرأة البائسة وفاض منه إلى أبنائها وشمل البيت جميعا فى ثوان سريعة، وشارك فيه وهو لايدرى وخيل إليه أنه يحدثه فأحس بسعادة طاهرة لم يخفق بمثلها قلبه من قبل ...

وألغى إجازته وعاد إلى وظيفته بعزم جديد، وحدث ما كان متوقعاً فوقع الصدام بينه وبين رئيسه وبينه وبين زملائه وجرت على لسانه كلمات لم تكن لتنتظر منه أبداً وكانت موقع الدهشة لدى الجميع، ذاد بها عن الكرامة وذم «الاغتياب» ورد بها المتحرشين وجملته بطل ثورة غريبة حار الجميع فى تعليلها، ووجد الجو من حوله يتغير سريعاً وآنس من البعض ميلا إلى إبعاده أو تأديبه ولكن شيئاً واحداً لم ينازعه فيه إنسان وهو الاحترام الظاهر والمعاملة اللائقة، ورضي بذلك مغتبطاً ولم يبال ما تخفى الصدور أو ما تخبئ الحنايا

ترى أمن الحكمة أن يغضب القوم وهو على أبواب الأبدية؟ ولكن ما حيلته وهم لا يرضون عن إنسان يعرف حقاً لانسانيته وكرامته، وهو على كل حال لا يعبأ بالناس فى سبيل مرضاة الله الذى هو على وشك المثول بين يديه ...

وإحسان! ماذا هو صانع بها؟ لقد ضيع الفرصة السانحة وترك شبابه يتسرب من بين يديه وهو غافل عنه بالاطمئنان إلى العمر المديد ... ومهما يكن فالأمر واضح لا لبس فيه، وليس عليه إلا أن يذهب إلى صديقه القديم ويطلب يدها فاذا رفض — وهو حتما سيرفض — عاد مطمئن الضمير ملقياً عن نفسه ما ينغصها من وخز الألم والتأنيب .. ولن يضير إحساناً اختفاؤه من حياتها لأن عدم الزواج من ميت ليس خسارة تذكر ...

وذهب إلى صديقه القديم وحادثه فى الأمر وانتظر الجواب الذى قدره، ولكن حدثت معجزة لم يقدرها مطلقاً ... فرحب به الشاب وقبل طلبه وشد على يده بحرارة ...

يا للعجب! لقد كان أعمى حقاً، ولكن ما العمل الآن؟ فقد غدا الزواج منها جريمة لا تغتفر لأن معناه أن يغادرها بعد حين قليل أرملة فى

عنفوان الشباب وربما ترك فى بطنها طفلا يتيما ...

ووجد نفسه فى حيرة ظلماء لا يهتدي فيها إلى مخرج، فقد قبل طالبه بالموافقة التامة وعلمت به احسان، ولا شك أنها تنتظر الآن بفرح عظيم الخطوات الختامية وهو لا يستطيع أن يتقدم ولا يدرى كيف يتقهقر ...

ولم يربدا فى النهاية من الافضاء إلى فتاته بأزمته النفسية بجميع تفاصيلها وباح لها بكل مخاوفه وأوهامه، وأصغت الفتاة إليه بقلب واع، ولكنها لم تجد من نفسها استعدادا لتصديقه أو موافقة على ظنونه وتقديراته، وأبت أن تسلم بما يسلم به قانطا، وحملته على عرض نفسه على مشاهير الأطباء، ولم تدعه يذهب وحده فذهبت معه ... وأكد الأطباء جميعا وجود الضغط ولكنهم سخروا من أوهامه وأجمعوا على أن لا خطر يهدده قبل الستين ... وابتسمت إحسان مغتبطة وابتسم محمد فى حيرة وارتياب، وظل على ارتيابه أياما ولكنه كان شديد الاستعداد للتأثر والايحاء فأخذت كلمة الثقات تمحو من نفسه المخاوف. ولكنه لم يعاوده شعور الطمأنينة إلى الحياة والنجاة من الموت إلا بعد أيام أخرى. فلما كرت ذهبت عنه حمى الخوف وعد نفسه مرة أخرى من الاحياء، وتأمل حياته ساعة فلم يملك أن يهتف من أعماق قلبه: ياعجبا ... لقد بعثت بعثا جديدا ...

لأنه مات — إذا جاز لنا أن نقول ذلك — ذليلا جبانا سارقا نذلا أعزب، ورد إلى الحياة كريما شجاعا أمينا شهما متزوجا — فياللعجب! هل يستطيع الموت أن يخلق جميع هذه المعجزات؟ لقد غابت عنه قديما لذة الفضيلة فكبر عليه فعل الخير وهالته الشجاعة وخال الاقدام عليها هلاكا ذريعا ... فأثبت له الموت بالتجربة الواقعة أن الفضيلة لذة سامية، وأن فعل الخير سعادة لا تعجز طالبه، وأن الشجاعة حياة كريمة لا هلاكا محتوما ...

ولا نحب أن نقدر محمدا بفوق ما يستحق فالحق أنه كانت تأتى عليه ساعات يخلو فيها إلى نفسه فيهمس حيران متأسفا: قد تزوجت وانتهيت ... وهجرت حياة الليل اللذيذة ... ولن أكون آمنا بعد اليوم فى وظيفتى ... ولكنها كانت أصواتا خافتة سرعان ما تغيب فى جلبة الحياة الجديدة ...

وليث يعجب لما صنع الموت منه. ويحسبه من الخوارق والمعجزات. ولما امتلأ صدره بالتعجب والتأمل رأى أن يشرك فى أفكاره صديقه الطبيب الذى لا يؤمن بغير العلم والمادة فقص عليه قصته وروى له ما فعلته فكرة الموت بجبانه، وأصغى إليه الطبيب بانتباه، فلما انتهى قال له بسخرية: « ويحك أتتوب عن نعيم الدنيا لدنو الموت منك؟ ... انظر إلى ... ألست تراني أواصل الليل بالنهار عملا واجتهادا وراء المجد والشهرة والنجاح؟ أفتعلم ما الذى أصنع لو اطلعت على الغيب وعلمت أن الموت منى قريب؟ ... لاشيء ... اخلد إلى الراحة والدعة واقضى ما بقى من حياتى بين الكاس والخدود! »

وضحك ضحكا عاليا متواصلا ثم قال بنفس اللهجة الساخرة:

« ولكن أتعلم متى أتوب حقا عن المهالك وأهب نفسى للعلم والفضيلة؟ .. إذا وجدت الخلود ممكنا فى هذه الدنيا » وأصغى إليه محمد فى صمت وجمود ... وازداد عجبا وتأملا ...

نجيب محفوظ